

المدن العتيقة تكتب نفسها

المدن العتيقة تكتب نفسها.. بعض المدن لا تشبه غير نفسها.. تمر في تاريخها سماوات وتتعاقب عليها حقب وأجيال متوالية، لكنها تظل تحتفظ بخواصها التي تشرح هويتها فلا تضحل ولا تتنصل من تاريخها أو يتلاشى منها، لذا هي لا تقاس بتعاقب الحوادث فحسب ولا بمحطات توقف الناس ومنعطفاتهم فيها، بل بعمق المواقف التي تشهدها. كذلك كانت كربلاء في خلودها، هي مدينة خاصة بأحداثها، وتواريخها ومشهدياتها. فهي مدينة مرت بها كثير من الحوادث، ووفدتها الكثير من النوايا المعقودة عبر تاريخها بالشهادة، وخلدت شخوص الكثيرين فيها، بينما أحرقت ونفت آخرين وباعدتهم عنها. وبما أن الشهداء يزدادون عمرا بشهادتهم على اعتبار أن الحياة تضحي مديدة لهم بعد الموت، فهم يتركون أثرهم في المدن التي يستشهدون فيها ويمدون بها بأعمار طويلة تتركها في حالة شباب دائم ومتوهج، كموقف، وحدث، وعقيدة، لذا فهم يعطون للمدن قدسية خاصة وعمرا آخر امتد يضاف لتاريخها العميق. مرت بكربلاء حقب ورجالات كثيرة، مواقف لازالت تحكيها عبر أنفاسها كلما تمايلت بها فصول الذاكرة، وهزتها تواريخ الأيام واسترجعنا تفاصيل الأحداث فيها. فرجال كربلاء كانوا هم من ساهم في كتابة تاريخها العتيق بحبر دمائهم، فالهوية تمثلت في قضية الحسين ومواقفه وملحمته الخالدة، لكنها اكتملت أكثر بوجود الأنصار الذين مروا في أحداث كربلاء كأعلام شاهقة، فصنعوا علاقتهم بواقعة الطف كأزلية لا تنتهي، وضوعوها بعطر دمائهم التي راحت مسفوكة في ساحة صحراء الواسعة : "فإني لا أعلم أصحاب أوفى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوفى من أهل بيتي"، لهذا صارت كربلاء مدينة استثنائية، استثنائية بملحماتها وقضيتها، واستثنائية ببطلها الإستثنائي، فراحت تكتب بحبر البطولة الذي سٌجل بدم الأنصار، الذين استشهدوا بين يدي الحسين. راحت تكتب تاريخها الإستثنائي وأبطالها الذين توافدوا في قلبها عبر مفرق زماني استثنائي وخاص جدا، راحوا يرسمون قدرها قبل أقدارهم، يتوجون مجدها قبل مجدهم، ويسطرون حكاياتها وحديثها العميق، الذي كلما قلت اكتفيت منه ترجع له عطشان بسحر فاضح لقلبك ومشاعرك وكل كياناتك مجتمعة. كآثم في العشق تفضحه نبضات قلبه، نظرات عينيه وفلتات لسانه وتراكم أفكاره ناحية معشوقه، وكلما توارى بعشقه، كلما خفق داخله صارخا به مدلا عليه.. هكذا العشاق يكتبون عشقهم، يقتربون من منابعه، يستطلون به وبوصوله، فلا خيبات ولا حسرات ولا أحزان تصيبهم، فقد وصلوا لغايتهم وأدركوا مرامهم فبه يتيهون وبه يحييون. فلما فجع الحسين بأهل بيته وولده ولم يبق غيره والنساء والأطفال نادى فيمن شهد كربلاء : "هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟ هل من موحد يخاف الله؟ فينا؟ هل من مغيث يرجو ما عند الله في أغاثتنا". قليل أجاب وكثيرين تخاذلوا وفروا زحفا، لا يرومون سوى الفوز الذي ظنوه، فلم يحظوا به. وبينما هم يفعلون بقيت معركة الطف قائمة في صراع محمود يعرفه أصحاب

النجدين، لم تنتهي حتى الان، فهي ما زالت قائمة في كل العصور ومتاحة لاستقبال كل المتوافدين على قيمها، لم تنتهي سيرتها لليوم، فهي في كل حياتنا في كل قيمنا، في كل تعاملاتنا، ومشاعرنا وكل طرقنا التي ننتهجها، فمن تراه سفهم قيمة ما خلده كربلاء، ويقرأ سيرة كتبت بدماء التحصيات تطيل في عمره وتقصّر في عمر المعرض عنها، من تراه سيقترّب من سيرة العشق ويصغي لوجيب قلبه ويستجيب لنداءها، فتكتب اسمه في تاريخها العتيد